مجلـــة كليـــة العلوم الاسلاميـــــــة
العدد(٦٠) ٤ جمادي الأول ١٤٤١هـ / ٣٠ كانون الأول ٢٠١٩م

الرسائل النثرية الحربية

في الأندلس حتى نهاية القرن السادس الهجري

Warlike prose letters in Andalusia until the end of the sixth century AH

الباحثة

زمن عبد العباس حسن

Zaman Abdul Abbas Hassan

في جامعة بغداد-كلية الآداب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

تميز الأدب العربي في الأندلس بطابعه الخاص، فضلا عن تميز إيقاعه المؤثر في نفوسنا, فهو يمثل الامتداد الطبيعي للحضارة العربية الإسلامية في المغرب، تلك الحضارة التي انهارت مع انعدام الأمن والاستقرار وخروج العرب المسلمين من تلك البلاد وبهزيمة المسلمين اندثرت حضارتهم ولم يبق منها سوى أطلال تشهد لقادتها بالحياة الآمنة والمستقرة ولكن الأدب في الأندلس خاض تجارب كثيرة تعبر عن حياة العرب المسلمين هناك , ولاسيما ما تميز به مسلمو الأندلس من خوضهم للعديد من المعارك والفتوحات ,لكنهم لم يفجعوا كفجيعتهم يوم سقوط الأندلس وانتهاء الإسلام فيها . لذلك قد تميزت صورة الأندلس في أذهاننا بالعز المندثر والجرح النازف , ولهذا الوقع أسباب كثيرة قد تكون داخلية أو خارجية , أسهمت في هذه المأساة المؤلمة التي أطفأت منارة الإسلام من الأندلس بعد استمرارها زهاء ثمانية قرون.

الكلمات المفتاحية: رسائل، الأندلس، الحرب، نثر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

احتل الأدب مكانة مرموقة في نفوس الناس في العصور الأندلسية عبر التاريخ . وكان له الأثر العظيم في حياتهم التي تأثر بها بدوره، أوجدوا في هذا العصر أوزان شعرية عديدة وسموا بها عصرهم مثل الموشح والزجل، وأبدعوا في التجديد في الفنون النثرية منها رسائل الحرب ورسائل في وصف طبيعة الأندلس الخلابة ومؤلفات في الحب مثل طوق الحمامة وساروا بها على مذهب المشرقيين وأضافوا لها وطوروا فيها، لتعكس طبيعة حياتهم وطبائعهم وأذواقهم وتنوعهم الثقافي وطبيعة بلادهم. ونال الكاتب منزلة مميزه عندهم حتى تبوأ بعض كبار الكتاب مناصب الوزارات لدى الخلفاء والأمراء.

لذلك في هذا البحث المختصر سيتم تناول رسائل الحرب في الأندلس. فنحاول البحث ورصد ملامح الرسائل النثرية الحربية في الأندلس حتى نهاية القرن السادس الهجري من المصادر المتوفرة. ومن خلال البحث قسمت المادة إلى مبحثين رئيسين سبقتهما مقدمة، في الأول، تم بحث نماذج من رسائل الحرب وموضوعاتها عبر العصور الأندلسية المتعاقبة.

وفي المبحث الثاني، تناولت فيه الخصائص والسمات الرئيسة لرسائل الحرب في الأندلس. وحاولت في المبحث الوصول إلى ابرز السمات التي استخلصها الباحثون في هذا المجال. تلت هذا المبحث خاتمة أجملت فيها نتيجة البحث وخلاصته.

وتتبلور أهمية البحث من حيث إنه تذكار لبلاد الأندلس وما لها من مكانة مميزه ومرموقة في الجوانب السياسية والدينية، مما يجعل الدراسات الأندلسية محببة للنفس نثرا أم شعرا كونها نابعة من إحساس إسلامي وقومي في بيئة شهدت كثيرا من الأحداث وتميزت بمميزات خاصة، كفترة مشرقة في حياة الأندلس، ليس في الأدب فحسب بل في كافة ضروب تاريخ الأندلس الذي أبرز حضارة إسلامية عربية سياسية واقتصادية وعسكرية وعمرانية و ما

العدد ٦٠

٤ جمادي الأول ١٤٤١هـ
٣٠ كانون الأول ٢٠١٩م

زالت شهرتها تتردد حتى يومنا هذا باكتمال معالمها في القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن السادس الهجري.

المبحث الأول:

رسائل الحرب:

أتخذ الأدب مكانة عليا في نفوس عامة الناس وخاصتهم في الأندلس. وكان له أثرا بليغاً في حياتهم، فأبدعوا بظهور أوزانا خاصة تميزوا بها كالموشح والزجل، ناهيك عن الفنون التقليدية الأخرى من شعر ونثر التي ساروا بها على مذهب المشرقيين وطوروا فيها، لتعكس حياتهم وطبائعهم وأذواقهم وتنوعهم الثقافي وطبيعة بلادهم. وللمكانة المرموقة التي تميز بها الكتاب والأدباء في ذلك العصر جعلتهم يتبوؤا مناصب عليا في الدولة كوزراء لدى الخلفاء والأمراء. وفي مكانة الكتابة جاء في كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) (للمقري التلمساني): "وأما الكتابة فهي على ضربين أعلاهما كاتب الرسائل وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة يخططه من يعظمه في رسالة وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة فإن كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه والكاتب الآخر كاتب الزمام هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ولا يكون بالأندلس وبر العدوة لا نصرانيا ولا يهوديا البتة إذ هذا الشغل نبيه يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم."[1] حتى صار الوزير يسمى كاتباً.

شهدت الأندلس ومنذ البداية أجواء الحرب والاقتتال وكل ما رافق هذه الأجواء من ظروف ومصاعب. فكما نعلم أنّ الأندلس دخلت في إطار الحكم العربي والإسلامي نتيجة الفتح الذي قامت به جيوش المسلمين. وخلال الفتح جرت حروب. ومع سقوط الحكم الأموي بدأت جولة دامت مئات السنين من فترات الاستقرار تارة والاضطرابات تارة أخرى. ولأغراض أداء الاتصال بين

العدد ٦٠

٤ جمادي الأول ١٤٤١هـ
٣٠ كانون الأول ٢٠١٩م

الخلفاء والأمراء وقادة جيوشهم وحثهم على القتال أو للسعي لإعادة أحد الولاة الخارجين عن طاعة السلطة كانت الرسائل وسيلة أداء تلك الأغراض. ولذلك فإنّ الرسائل الحربية في عمومها هي جزء من الرسائل الديوانية، لأنّها تدور في الأوساط الرسمية للسلطة الحاكمة وولاتها وقادة جيوشها. "من الموضوعات المهمة التي عالجتها الرسائل الديوانية الأمور الحربية المختلفة. فقد شهدت الأندلس خلال القرون الثلاثة الأولى للفتح كثيراً من الأحداث السياسية التي تمخضت عنها حروب ووقائع داخلية وخارجية خطيرة."(٢)

ونظراً لشدة وقع الحرب على حياة الناس ونفوسهم وأبعاد تأثيرها على مركز الحكام وسلطانهم فقد "كانت الحرب وما تزال ذات أثر في نفوس الناس عامة والأدباء خاصة، من مظاهر هذا التأثر القصائد الطويلة التي نجدها في شعر الشعراء منذ العصر الجاهلي وحتى العصور المتأخرة وكان للنثر تجاوب كذلك مع هذا الأثر وتعبير عنه مارسه الأدباء في المشرق بصورة قليلة ولكنه ظهر هنا بشكل واسع يشغل قطعاً نثرية عديدة أوردتها المصادر الأندلسية والمشرقية..."(٣)

وكان الوصف أداة الكاتب في أحايين كثيرة لنقل وقائع الحرب وظروفها وعددها ونتائجها "ووصف النثر الأندلسي الحرب وعددها وما يتعلق بها والنتائج التي تتمخض عنها على صعيد المجتمع وأحوال حياته، وربما تطرقت بعض القطع الوصفية إلى وصف بعض المعارك وتصوير تطوراتها وكيفية تحقيق النصر على الأعداء"(٤)

اشتملت رسائل الحرب على أغراض متنوعة فرضتها طبيعة المواقف التي كتبت فيها. فالرسائل التي تكتب من الخلفاء إلى من هم أدنى منهم تختلف أغراضها عن تلك التي تكتب من الولاة والقادة إلى الخلفاء والأمراء. وكذلك يفرض هذا اختلافاً في طبيعة مقدمة الرسالة. فمن الرسائل ما احتوت على النصح والتوجيه وإعطاء بعض الخطط الحربية من قبل الخلفاء والأمراء إلى قادة الجيش. ومن الرسائل ما تضمنت طلب العون والإمدادات العسكرية. ومنها ما تضمن غرض بث الحماسة ورفع المعنويات في صفوف المقاتلين

وإشعارهم باهتمام الحاكم بهم وبأعمالهم. وبعضها ما جاء بهدف الثناء على بطولة أو عتاب ولوم على تقصير. وهناك رسائل التهنئة بالنصر والظفر بالمعارك. وغيرها يشرح ويوضح ظروف وأسباب الهزيمة وملابساتها ويبرر النتيجة غير المرغوبة ويصف بطولة الجيش وشجاعة المقاتلين في الدفاع وقوة الجيش المعادي وكثرة عدده ويعود ليطمئن الذين وجهت الرسالة اليهم بأنّ النصر سيكون حليفهم في المرة القادمة.(٥)

ستكون الوريقات التالية مكان عرض نماذج من رسائل الحرب في الأندلس في عصورها الكبرى الأساسية.

الفتح والعصر والأموي:

في البدء خاضت الجيوش الفاتحة الحرب تلو الحرب مع قوات المدن الإسبانية التي كانت تحاول صد تقدم القوات الفاتحة. وكان الأمراء في الأندلس يؤمنون اتصالهم مع القادة في ميادين الحرب ومع ولاة المناطق المختلفة عن طريق الرسائل. ولا شكّ أن الرسائل التي كانت الحرب موضوعها كثيرة من بين تلك الرسائل. "وقد كان لنشاط الجيوش الأموي واستمرار حركتها في محاربة الثائرين على الحكم، إلى جانب نشاطها الخارجي الذي يتمثل في الجهاد ضد الدولة النصرانية في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة الإلبيرية، ومحاربة الحسينيين الذين تحالفوا مع الفاطميين في العدوة المغربية ضد الأمويين بالأندلس، صداه الواسع في أدب الرسائل، إذ كان حافزاً قوياً لإنشاء المكاتبات الحربية التي كانت حلقة الوصل بين الخليفة أو الأمير الأندلسي وأمراء الجيش في ساحات المعارك."(٦)

وخلال العصور الأولى للفتح والعصر الأموي وصلنا "من بواكير رسائل الزجر والتهديد ما كتبه (عبد الرحمن الداخل: الملقب بصقر قريش أسس الدولة الأموية في الأندلس عام ١٣٨هـ) إلى رجل خارج عليه يسمى سليمان الأعرابي، حيث يدعوه بالرجوع عن غروره، ويهدده بالبطش به إن هو لم يستجب لدعوته، حيث يقول: "أما بعدُ، فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لَتَمُدّنَّ يداً الى الطاعة، و الاعتصام بحبل

الجماعة، أو لألقينَّ بنابها على رضف المعصية نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد.

ومن بواكير الرسائل التي سلكت سبيل المصانعة والملاطفة والترغيب، تلك الرسالة التي وجهها (يوسف الفهري)" آخر ولاة الأندلس عاصر الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وظل واليا عليها الى أن دخل عبد الرحمن الداخل الأندلس وهزمه وأسس الدولة الأموية في الأندلس" إلى (عبد الرحمن الداخل) قبل الحرب بينهما، يعرض فيها عليه الرعاية، ويحاول خداعه وإقناعه بالعدول عن الحرب متبعاً أسلوب الترغيب والملاطفة: "أما بعدُ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتأبش من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة، التي كذبوا الله فيها وكذّبونا! وبه –جلّ وعلا– نستعينُ عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيشٍ، حتى غمصوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفاً وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط. فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى لك ممن لجأت إليه، أكنفكَ، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت وبحيث تريد، ثمّ لك عهد الله وذمته في ألّا أغدرَ بك، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب أفريقيا ولا غيره".(٧)

ومن الرسائل الحربية التي تضمنت الحثّ على أخذ الحيطة والحذر الرسالة الجوابية التي بعث بها الحكم المستنصر إلى قائده في العدوة المغربية (غالب بن عبد الرحمن الناصري)" ذي السيفين كان زعيم المماليك الناصريين ومولى عبد الرحمن الناصر ومقربا من ابنه المستنصر ومن أقوى القدة العسكريين في الأندلس"، وفيها يدعوه إلى استشعار الحذر، وإيقاظ النظر، حيث يقول: وليس يخفى عليك أنّ الشتاء بين يديك، والبحر دونك، وربما تعذر ركوبه فاجعل الطعام ذخيرتك، وحفظه تجارتك، فالأموال بحمد الله موفورة، واحتمالها في كلّ وقت متمكن ... واحتط في الطعام جهدك، ووطن على الصبر نفسك، ولا تمنها برجوع إلى بيتك حتى يقطع الله دابر الفاسقين، ويفرق ملأ الملحدين".(٨)

العدد ٦٠

٤ جمادي الأول ١٤٤١هـ

٣٠ كانون الأول ٢٠١٩م

عصر الطوائف والمرابطين:

كان هذا العصر فترة حروب ومشاحنات بين أمراء الأندلس وقد بلغت الفتنة درجة بحيث ساد الاضطراب زمناً. "لقد اشتعلت الفتن والحروب بين ملوك الطوائف، فما تكاد تخمد حرب حتى تشتعل أخرى، ولم يخل عهد أمير من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك، أو حرب تشن على هذا الأمير أو ذاك، فتعددت المعارك وكثرت الاشتباكات التي لم تقف عند حد، وكان عدد الضحايا من المسلمين كبيراً. وفي ظل هذه الظروف لم ينهض بعض الكتاب بدورهم السياسي الصادق والمتمثل بإثارة نفوس الجند وتوجيه الأمراء الى توحيد الصف... ولعل مرد ذلك حرصهم على مكانتهم عند الأمراء".[٩]

وبما أن أبرز الكتاب شغلوا مناصب الوزارات عند الأمراء والملوك وكان من مهامهم تدبيج الرسائل باسم أولئك الملوك والأمراء، فقد كان الكثير من رسائلهم انعكاساً لرغبة أسيادهم تتضمن التهييج وإثارة الفتنة والضغائن وتصف قسوة بعضهم على البعض الآخر، فمن رسالة لأبي بكر بن القصيرة على لسان الشاعر(المعتمد بن عباد)" هو ثالث وآخر ملوك بني العباد في الأندلس، وكان ملكا لإشبيلية وقرطبة في عصر ملوك الطوائف قبل أن يقضي على إمارته المرابطون" وإغارته على أحدى المدن الإسلامية المجاورة، تصف الحرق والتدمير الذي أصاب المدينة وأحالتها إلى خرائب، يقول فيها: "وتقدمت لطلب الثأر... فتقدمت في معسكر ألّفته يد الإعجال، وحالت البديهة بينه وبين الاحتفال، فأنخت به على بلده أياماً، قطعت فيها دونه كلّ الرفاق، ولم أبقِ حوله سقفاً على جدارٍ ولا قائمةٍ على ساقٍ، ثم مررت إلى جهة فلانة أجوس خلالها، وأتقرَّى بالنهب والإحراق أعمالها، وأتسنم معاقلها وأجعل أعاليها أسافلها..".[١٠] وفي هذه الرسالة يتبين البعد الذي وصل اليه حال المسلمين في تلك المرحلة من القتال والفرقة والاحتراب والتنكيل ببعض والتخريب الذي أستخدم مما استنزف طاقاتهم واستنفذ مواردهم وجعلهم ضعفاء منهوكين.

ولكن ومع كون هذه الحال هي السائدة على الوضع السياسي والتي طبعت موقف أغلب الأدباء في حينها، إلّا أن هناك مواقف مغايرة بدرت عن بعض

الأدباء تختلف في تقديرها ورؤيتها للحرب. ومثال هذا القطعة النثرية التي كتبها الكاتب(ابن برد الأصغر)" هو ابن برد الأكبر من أهم أقطاب النثر الفني في القرن الرابع" يصف بها أهوال الحرب ويحذر من عواقبها وفيها كتب: "الحرب مشكلة للنفوس متلفة للأموال مجلبة للندامة في العواقب، تلذّ ميادينها للأشرار وتنمي كلا كل عاقبتها على الأخيار وقلما تقدح مشعلها ويغلي مرجلها، الا فراش الشر ذؤبان الطمع، ممن لا يحفل بعار ولا يستحي من فرار، فان هلك لم يفقد وان نجا لم يحمد، ثم ترتكض جماهير الناس وأولو الذكر والأعاظم أخطاراً، والأحاسن آثاراً في لجج تبعد عن السواحل وينؤون بفوادح تهد عنها الكواهل، فأصحّ الناس لباً وأبعدهم نظراً وأخبرهم أحساباً من حضّ على الصلح ونسب إلى إبراء الجرح ولم يأل إرشادا وتبصيراً، ومن سوء العواقب تخويفاً وتحذيراً وبادر الفتنة بالإطفاء وعصب المنحازين بالإرخاء وشوكة الحرب بالخضد فحقن الدم وحمى الحرم...".[١١] إنها على النقيض من تلك الرسالة في محتواها وهي تدعو إلى السلم ونبذ الحرب وتجنب ويلاتها، ويسعى كاتبها للحض على حقن الدماء وإطفاء نار الفتن والاقتتال مزينا السلم في نظر الناس ومقبحاً الحرب عندهم ذاكراً فضائل الحلم ودور الأخيار في وقف النزيف وتلافي الأخطار التي يسببها الأشرار الذين لا يهتمون بأي عار يلحقهم ولا يستحون من أية عاقبة تنالهم.

وإذا كان الكاتب أبو بكر بن القصيرة في جانب الحرب ومبتهجاً بدمارها، كما تقدم في مقطع من رسالته آنفاً، فأننا لا نعدم أن نجد كاتباً آخر هو أبو حفص(عمر بن الحسن الهوزني)" كانت اليه زعامة إشبيلية قبل دولة بني عباد شاعر، و من رجال السياسة وعالم بالحديث" حيث يعبر عن شجاعة وحكمة في الدعوة الى حقن الدماء بإرساله رسالة إلى المعتضد يتطرق في جزء منها إلى الحرب وما تنطوي عليه: "... والحرب في اجتلائها عروس تطبي الأغمار بزتها، شمطاء عبوس تجتلي الأغمار غمرتها، فالأقل للهبها وارد والأكثر عن شبهها حائد فاخلق بمحيد عن مكانها وعزلة في ميدانها

فوقودها شكة السلاح وبريدها مساقط الأشباح وقتارها متصاعد الأرواح، فإن عسعس ليلها مدة من الانصرام وبلها ساعة الانسجام..."[١٢]

وهكذا نرى أصواتاً متعددة وبعضها يتصف بالحكمة. "وهذه الرسالة تذكرنا بصور الحرب التي جاءت في معلقة زهير بن أبي سلمى عندما كان يذم الحرب ويعدد مضارها وآثارها الرهيبة على المتحاربين، ويعد هذا الكاتب داعية للسلام من خلال رسالته"[١٣]

عصر الموحدين:

تميز هذا العصر عصر الموحدين بالاضطرابات والحروب شانه شأن أكثر فترات التاريخ الأندلسي. ولا شكّ إن النثر، وخصوصاً الرسائل الديوانية باعتبارها انعكاساً لنشاط السلطة في الإمارات والممالك ومعاركها، يواكب كلّ تلك الأحداث الهامة والخطيرة ويحمل تطوراتها ويسجل الانتصارات والانتكاسات فيها ويعبر عن مختلف جوانبها[١٤].

قد كانت للمعارك التي خاضاها الموحدون في الأندلس لتوسيع مناطق نفوذهم وبسط سيطرتهم عليها صداها في أدب الرسائل في حينه. خصوصاً وأن المعروف هو ازدهار النثر في تلك الفترة من حياة الأندلس والتي ترافقت مع الصراعات السياسية والحربية سواء بين الأمراء أو بينهم وبين الممالك الإسبانية. فقد أورد لنا بروفنسال العديد من هذه الرسائل وضم كتاب "رسائل موحديه" بين دفتيه أيضاً عدداً كبيراً منها. فنقرأ فيه: "منذ القضاء على ثورة غمارة تزايدت الإمدادات الموحدية إلى الأندلس، لمواجهة تهجمات ابن مردنيش ولإضعافه، وفي هذا الوقت أيضاً كانت الجماعات النصرانية تحت قيادة القائد الجليقي "جرانده" (جيرالدو) تُغير على الأراضي الموحدية، فوصلت مرة إلى وادي آش، فاعترضتها عساكر من غرناطة وافتكت منها الغنائم، فكتب الشيخ أبو عبد الله والي غرناطة إلى الخليفة -وربما أيضا إلى أخيه وزيره السيد أبي حفص- مخبراً بهذا "الانتصار" فأجابه الخليفة مهنئاً له برسالة وردت في المن... مؤرخة ب الثالث من شهر رمضان في سنة ٥٦٣هـ، وفي

نفس الموضوع ونفس التاريخ كتب اليه السيد أبو حفص رسالة وردت في المن... والرسالتان معاً مجهولتا الكاتب.

أما بعد، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا اله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، ونسأله الرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم القائم بأمر الله تعالى والداعي إلى سبيله، ونوالي الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ممشي أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله.

وقد وصلنا كتابكم من غرناطة –حماها الله– بما سناه الله في الأعداء الكفرة الذين كانوا بوادي آش فتحها الله... فيسر الله لكم من أسباب العون عليهم، ومكيفات الأنجاد في الأخذ بالثأر منهم ما شرحتموه في كتابكم، وبينتموه بإعلامكم مما وفقنا منه على ما سر موقعه وحسن مطلعه، وجرى على معلوم هذا الأمر في نصرته وتأييده، والصنع الجميل له، وإخزاء أعدائه وادحار معانديه؛ والذي منح الله الموحدين في هذه الغزوة المباركة خير كثير، وأثر جميل، وله في تمهيد تلكم الجهات وتأنيس أهلها وبسط آمالهم وتسكين نفوسهم ومثابة من فت أعضاد الكفرة وتوهين أمرهم، وإشعارهم الإدبار في أحوالهم، والارتكاس في حويلهم مواقع ظاهرة الآثار، بينة المنافع، مع ما جبر الله في تلك الحال من الغنائم التي اغتصبوها أهلها، واقتطعوها من أربابها، فأحق الله الحقّ وأبطل الباطل ولو كره المجرمون."[١٥]

يتطرق ليفي بروفنسال في مقدمة كتاب "رسائل موحديه" الى ما ذكره القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) من ميزات الرسائل الصادرة عن الخلفاء الموحدين. حيث " قال أنها على أسلوبين؛ الأسلوب الأول أن تفتتح المكاتبة بلفظ (من فلان إلى فلان)؛ والأسلوب الثاني أن تنفتح المكاتبة بلفظ "أما بعد". أما الأسلوب الأول – وهو المستعمل بالأكثر في السلسلة التي ننشرها فقال فيه"وكان الرسم في المكاتبة أن يقال: "من أمير المؤمنين الى فلان" ويُدعى له بما يناسبه طالى فلان" ويدعى له بما يليق به؛ ثمّ يُؤتى بالسلام؛ ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والترضية

على الصحابة، ثم عن إمامهم المهديّ؛ ثم يؤتى على المقصود؛ ويختم بالسلام. والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب اليه." ولا يحتاج المطلع على الرسائل الى طويل بحث ليتعرف حقيقة هذا الرسم الذي حدده القلقشندي ويلاحظ أنّ الكتاب كانوا يحافظون عليه كلّ المحافظة."(١٦)

عصر بني الأحمر:

في هذا عصر شهد تراجع النفوذ العربي الإسلامي في بلاد الأندلس نتيجة للفتن الداخلية بين أمراء المدن والممالك المخلفة وتقدم القوات الإسبانية مطيحة بتلك المدن الواحدة بعد الأخرى. استطاع بنو الأحمر أن يدموا بقائهم حوالي مئتي عام اقتصرت معظمها على مدينة غرناطة حتى سقوطها. ومع هذا التراجع السياسي والعسكري إلا أن تيار الأدب الأندلسي بشكل عام والنثر بشكل خاص استمر يتدفق منتجاً كماً ونوعاً يعتد به من الروائع الأدبية. وكان للرسائل الديوانية الحربية نصيب في هذا الأدب.

وكما إن من وجوه الحرب التهديد والوعيد، فإن بين جولاتها كثيراً ما تجري هدنة أو يعقد صلح بين المتحاربين. وقد تضمنت الرسائل الديوانية محتوى تلك المصالحات أو احتوت المناقشات التي هيأت لعقد الصلح وأحياناً تأتي الرسائل لتجديد صلح سابق. "وهذا نموذج لرسالة صدرت عن سلطان غرناطة يوسف الأول إلى ملك أرجون، تضمنت الإشارة إلى الصلح المعقود بين الجابين إضافة لأعلام الملك الأرجواني (بهدنة) تمت بين ملك المغرب أبي الحسن المريني وبين ملك قشتالة يقول فيها: ليعلم من يقف على هذا الكتاب ويسمعه، أنا الأمير عبد الله يوسف بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرح بن نصر، سلطان غرناطة ومالقة والمرية ووادي آشي وما اليها وأمير المسلمين(١٧).

لما وقفنا على عقد الصلح الذي أمضاه علينا محل والدنا السلطان الأوحد، المعظم، أبو الحسن أمير المسلمين، ملك المغرب، أيده الله، مع السلطان المرفع، ملك قشتالة دون النهشة، ومن مضمنه انكم أيها السلطان المعظم...

أن أردتم امضاءه والدخول فيه، فإنكم بمضي حكمه معكم، كما أمضى مع ملك قشتالة، وأردنا نحن أن نثبت هذا الصلح معكم...".[١٨] وهذه الرسالة هي من صيغ المحاورات الدبلوماسية بين الدول المختلفة. وهنا بين سلطان غرناطة والملك الاسباني وهي لتثبيت الصلح بينهما حيث يدعوه فيه لإمضاء المعاهدة كما أمضاها كل من ملك المغرب وملك قشتالة. ولا شك في حالة الرد السلبي أو عدم إمضاء هذه المعاهدة فان حالة حرب تقوم بينهما حتى وإن لم تدر رحى الحرب من ساعتها.

من الرسائل التي وصلت إلينا رسالة في طلب العون ووجهها أبو عبد الله "...آخر ملوك غرناطة إلى الشيخ الوساطي سلطان فاس بقلم الكاتب الأديب أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي التي يقول فيها: أما بعد حمد الله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح.. فيا مولانا الذي أولانا من النعم ما أولانا فأقول ما قاله أبو يوسف "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ"[١٩]. على اني لا أنكر عيوبي ... فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفاً، ولا عمدنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصوفة عطفاً والا تلك بغداد دار السلام، قد نُوزلت بالجيوش ونزلت، وتحيف جوانبها الحيف ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف... وجرت الدماء في الشوارع والطرق كالأنهار والأودية... فطاح عاصمها ومستعصمها، وخربت مساجدها وديارها... ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب، المنفتح حين سدت الأبواب... ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما البسنا الملك والأثواب... ووجه الله تعالى يبقى وكلّ من عليها فان".[٢٠]

يظهر واضحا من خلال الرسالة مستوى المحنة التي وصلت اليها الأندلس في آخر أيامها حيث تعاني غرناطة، آخر المعاقل، الحصار والتهديد. فعلى لسان ملكها نلاحظ طلب العون من السلطان الفاسي ومحاولة استمالة عطفه ونصرته مذكراً اياه باستباحة التتار لبغداد والويلات التي حلت بها.

المبحث الثاني:

خصائص رسائل الحرب في الأندلس:

إنّ كلّ كاتب تكاد رسائله تتميز بخصائص معينة. ولكن الاختلاف يكون حسب موضوعها ومناسبتها والسياق الذي كتبت فيه رسائله. بيد أنّ رسائل الحرب باعتبار الموضوع المشترك أولاً، واعتبار كونها جزءاً من الرسائل الديوانية في الغالب، تتسم بخصائص عامة نحاول أجمالها في المبحث.

من هذه الخصائص:

- إن كتابها في الغالب هم من الكتاب البارزين في عصرهم وتأتي على لسان الخلفاء والأمراء، رغم أن بعض الخلفاء والأمراء يحررون رسائلهم بأنفسهم. وذلك كون الكتابة تمتعت بمكانة مهمة لدى ممالك ودول الأندلس. وقد ورد في سياق البحث أن الوزراء في تلك البلاد كانوا من أشهر كتاب وأدباء الأندلس حتى ان الوزير كان يسمى (كاتباً) في الأندلس.
- بعض كتابها مجهولين لأسباب عديدة. حيث "إن قسما من الرسائل منشؤوها غير معروفين بوضوح، كما أن عددا آخر منها مجهولة المؤلفين تماماً، ويمتاز النوع الأول بتعدد الكتاب ومنهم من أمكن التعرف إلى ترجمته وبعضهم استحال -لحد الآن- التعرف عليهم بوضوح رغم البحث في عدد من كتب التراجم لأنّ هؤلاء الكتاب ذُكروا بكنية من الكنى كابن مبشّر وأبي الحسن بن الفضل وأبي العباس بن جعفر..."(٢١)
- معظم الرسائل تبدأ بصيغة: من فلان إلى فلان مثل "من أمير المؤمنين... إلى فلان" (بصيغة الإفراد والجمع).(٢٢) حيث يعتبر هذا تقليداً في ذلك الوقت يُظهر اسم ووظيفة المرسِل والمرسَل اليه.
- تشتمل الرسائل على ألقاب التعظيم في حال صدورها من الأمراء والخلفاء إلى نظرائهم أو صدورها ممن هم أدنى منهم. وتتسم

بالمبالغة في التعظيم عموماً. كذلك تطول فيها مدائح الخلفاء والأمراء والدعاء لهم في مقدمات مطولة.

- من التقاليد التي حافظت عليها هذه الرسائل هي البسملة والتحميد والصلاة والسلام على النبي محمد (صل الله علية واله وسلم).
- واحتفظت بـ (البعدية) –أما بعد– للدخول إلى غرض الرسالة الأصلي في أغلبها.
- ومن الملاحظ أن الرسائل التي كانت بين الأندلسيين أنفسهم امتلأت بالأساليب البلاغية والفنون البديعية والسجع والإطالة، فيما ابتعدت الرسائل التي كانت تُوجه إلى الملوك الأسبان عن تلك الأساليب واقتصرت على المقدمات التقليدية والدخول إلى الغرض بلغة سهلة وواضحة ومقتضبة.
- مما يلاحظ أيضاً هو طول رسائل الحرب التي تتحدث عن النصر. فهي تتميز بمفتتحات مطولة في مدح الخليفة أو الأمير ثم تطيل في وصف المعركة وبأس العدو وجيشه الذي هزمه جيش الأمير.
- وبشكل عام غلبت على هذا النوع من الرسائل سمات الرسائل الديوانية من حيث الإنشائية والنمطية في البناء والأسلوب.

العدد
٦٠

٤
جمادي الأول
١٤٤١هـ

٣٠
كانون الأول
٢٠١٩م

٤
جمادي الأول
١٤٤١هـ

٣٠
كانون الأول
٢٠١٩م

الخاتمة:

يعد موضوع الرسائل النثرية الحربية في الأندلس موضوع واسع ويشمل مرحلة زمنية أطول من أن يحيط بها بحث بهذا الاختصار، ولكن هذا لم يمنع من بذل الجهد من أجل التوفر على قدر ملائم من المعرفة من خلال المصادر العلمية التي اشتملت على مادة الموضوع.

ولقد تحقق لنا من خلال دراسة هذا النوع الرسائل عبر العصور وتصنيفها منهجياً، الوصول إلى أنّ هذا النوع من الرسائل في الأندلس قد اشتمل على مجموعة من الموضوعات والأغراض حددنا أهمها مع إيراد نماذج منها حيثما استلزم الأمر ذلك، أولاً. وتحديد أهم خصائص رسائل الحرب في الأندلس وتعدادها، ثانياً، وكما هو وارد في متن البحث.

وبعد تحليل تلك الرسائل من حيث المضمون فقد وجدنا إنها لم تخرج عن بيان البناء الذي قامت عليه تلك الرسائل وبيان الصور البلاغية التي كثر استخدامها من الأدباء سواء في تلك الصور تكون محسنات لفظية أم معنوية أم تشبيه أم استعارة، كما بينه الصور الشعرية المستعان في تلك الرسائل –بإيجاز شديد –وذلك لبيان اكتمال الحس الأدبي عند مصنفي هذه الرسائل.

كذلك وجدنا أن الرسائل النثرية الحربية قد أحتلت في العصر الأندلسي موقعا إسلاميا وعربيا بارزا في التاريخ، و مثلت أيضا بعدا في الدعوة إلى الجهاد في سبيل حماية الإسلام والحضارة العربية في تلك البقاع، فكان لا بد من إبرازها أكاديميا من خلال الكتابات العلمية عنها.

الهوامش

(١) احمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت،١٩٦٨، ص٢١٧.

(٢) فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط١، ١٩٨٩، ص١٢٩.

(٣) حازم عبدا لله خضر، النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠، ص٢٧٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٩.

(٥) أنظر فايز عبد النبي فلاح القيسي، مصدر سابق، ص١٢٩-١٣٣.

(٦) المصدر نفسه، ص١٢٩.

(٧) المصدر نفسه، ص١٢١-١٢٢.

(٨) المصدر نفسه، ص١٣٠.

(٩) المصدر نفسه، ص١٥١-١٥٢.

(١٠) ابن بسام: الذخيرة: القسم ٢ /المجلد ١، ص٢٨١.

(١١) المصدر نفسه: ق١ م ٢، ص٢٩-٣٠.

(١٢) حازم عبالله خضر: مصدر سابق، ص٢٧٦.

(١٣) فادي رشيد حلاق: فن الرسائل في الأندلس، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب-جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص٥٥.

(١٤) . فهد مفتاح يعيش الفمهي، الرسائل النثرية الحربية في الأندلس حتى نهاية القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة ام القرى، كلية اللغه العربية، السعودية ، ص١٢.

(١٥) رسائل موحدية (مجموعة جديدة)، تحقيق: أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، القنيطرة، ١٩٩٥، ص١١٨-١١٩.

(١٦) إ. لافى بروفانصال: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط،١٩٤١، المقدمة ص ج-د.

(١٧) . رانية احمد إبراهيم أبو لبده، شعر الحروب والفتن في الأندلس (عصر بني الأحمر)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين ٢٠٠٧، ص٨-١٣.

(١٨) فادي رشيد حلاق: مصدر سابق، ص٦٠.

(١٩) سورة يوسف: ١٨/١٢.

(٢٠) فادي رشيد حلاق: مصدر سابق، ص٦٣-٦٤.

(٢١) رسائل موحدية (مجموعة جديدة): مصدر سابق، ص١٨.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٣٧.

المصادر

- القرآن الكريم
- إ. لافى بروفانصال: مجموع رسائل موحديه من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الرباط،١٩٤١، المقدمة
- ابن بسام: الذخيرة: القسم ٢ /المجلد ١.
- احمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت،١٩٦٨.
- حازم عبدا لله خضر، النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠.
- رانية احمد إبراهيم أبو لبده، شعر الحروب والفتن في الأندلس (عصر بني الأحمر)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين ٢٠٠٧.
- رسائل موحديه (مجموعة جديدة)، تحقيق: أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، القنيطرة، ١٩٩٥.
- فادي رشيد حلاق: فن الرسائل في الأندلس، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب-جامعة بغداد، ١٩٨٩.
- فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط١، ١٩٨٩.
- فهد مفتاح يعيش الفمهي، الرسائل النثرية الحربية في الأندلس حتى نهاية القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة ام القرى، كلية اللغة العربية، السعودية

Abstract

Warlike prose letters in Andalusia until the end of the sixth century AH

The Arabic literature in Andalusia is characterized by its special character, as well as its rhythm influencing us. It represents the natural extension of the Arab-Islamic civilization in Morocco. To its leaders a safe and stable life. But literature in Andalusia has had many experiences reflecting the lives of Arab Muslims there, especially the characteristic of the Muslims of Andalusia from fighting many of the battles and conquests, but they were not surprised Kvijathm on the fall of Andalusia and the end of Islam. Therefore, the image of al-Andalus was distinguished in our minds by the splendid splendor, the bleeding wound, and this impact many reasons may be internal or external, but the painful tragedy that extinguished the beacon of Islam from Andalusia after continuing for nearly eight centuries.

Number 60

4 jumade 1

1441 A.H

30th Decemder 2019 M